تغريدة الصباح

ذلك اليوم!

حسن حميد

تسألني عن ذلك اليوم؟!
نعم، كنت طفلاً، حين هبطت الحرب مثل صخرة كبيرة فوق عش لفراخ عصافير، هبطت نهاراً، طائرات، وقنابل، ونيران، وأدخنة، وضجيج، ودوي، ومخاوف، ودمار، وأسئلة، ورجاءات، وأدعية.. أن يديم اللّه هدأة البال!
رأيت الناس يتركون الحقول وقد ذهبوا إليها ليحصدوا الغلال، ورأيت عربات الجر الخشبية الكبيرة تفرغ حزم القمح والشعير فوق أرض البيادر الواسعة، ثم رأيت بعضهم جرحى وقتلى، وبعضهم يتوارون هنا وهناك، ورأيت النار تلتهم كل ما تصل إليه، وبعض البيوت تتهاوى، ورأيت البراري التي كانت أوسع من الحواكير تضيق مساحاتها، وتختفي نباتاتها، وطيورها، وأجمات قصبها، وشجر سدرها وغارها، وقطعان الماشية تعود نهاراً إلى القرية، وهذا أمر غريب، رنة أجراسها مخيفة، وصمت الرعيان ثقيل كالحجارة، والخيول في طراد، والغيوم لا تبدو، بعد ان لفها دخان أسود عتيم، ودجاج جدتي أراه للمرة الأولى يدخل الخم الكبير طواعية، والشمس طالعة.
كان ذلك اليوم يوماً من أيام حزيران1967، وكنا في قرية (نعران) السورية التي لجأنا إليها عام 1948، فبنى لنا (توفيق الراشد) بيتاً من حجارة سود لها زرقة راهجة، وبناء آخر أكثر رحابة، هو (مراح) لقطعان ماشية جدي، وبناء ثالثاً أكثر رحابة وأكثر، يمثل مستودعات الغلال، والتبان!
جدي الذي أحب الشام كثيراً، وقد عرفها في شبابه، هو من اختار قرية (نعران) الجولانية ذات العلوة الجميلة المطلة على قريتنا (كراد البقارة) التي يحرسها ثلاثة: نهر الأردن، وجسر بنات يعقوب، وغابة هائلة فيها كل أشجار الدنيا وأسرارها؛ قال لجدتي: هنا يا (دندي) نقيم، كي نطل على بيوتنا، وحقولنا، ومراعينا، وبئر الدار، وحاكورتها، وكي أرى أنا وأنت السدرة الكبيرة، أم حبات الدوم الشقر، والظلال الوسيعة، التي كنت أجلس وإياك تحتها ضحى، لنأكل ما حفلت به الزوادة التي تأتيني بها كل يوم، كنت ومن آخر الحقل الوسيع، أسمع صوتك يناديني: تعال، وأرح البغلة، وعلق عليقتها، واغسل يديك، وسم بالرحمن قبل أن يبرد خبز الصاج، وابريق الشاي! من هنا يا (دندي) سنحرس البيت من السراق!
جدي، وفي ذلك اليوم الحزيراني المر بحرائقه، ودخانه، ودمائه، وأحزانه، وبكاء جدتي، ومخاوفه التي طالت كل شيء، دفعني دفعاً بعدما تعلقت بثوبه، وأنا أرجوه أن يأتي معنا كي نخرج من القرية مع الخارجين، وقد دمرت البيوت إلا قليلاً منها، وطالت القنابل كل شيء، وطاردت البشر، والحيوانات، وقتلت الكثيرين منهم، ودفن الناس في حواكيرهم على عجل.. كانت القرية، وكما عرفتها في صغري، قرية بلا أسوار، قرية كاملة الوضوح، فلا مخابئ فيها، ولا مغاور لها، ولا خنادق، لقد خفت على جدي، فارتميت في صدره راجياً إياه أن لا يبقى، فلا مكان يحميه من هذه الطائرات السود المجنونة التي ترمي قازاناتها الراعبة، اللاهبة بالنار، الحاملة للموت، والناشرة للخوف!
لكنه رفض، ونهرني قال: الحق بجدتك وأمك، قلت: ستقتلك القنابل يا جدي، انظر! وعلا صوت جدتي يرجوه أيضاً، فقال: أنا إن خرجت.. سأموت بحسرتين، حسرة الخروج، وحسرة البعد. واقتربت جدتي منه ترجوه أن يأتي معنا ريثما تهدأ الدنيا! فرفض. جدتي تعرف عناد جدي، فتركته، وأخذت بيدي، واستعادتني إليها، أنا والتفاتاتي الكثيرة نحوه! أذكر الآن، وقد مرّ وقت كثير المرارة أن جدتي قالت لنا محدثة عن الخروج الأول من قريتنا (كراد البقارة)، وعناد جدي، قالت: رفض الخروج، فقلنا له: أهل القرية أصابهم البلاء، ولفهم الشر، وأحاطت بهم النيران، والبيوت فجروها بالديناميت، وقطعان الماشية هربت نحو الغابة التي تخافها، وما عادت، وذهبت نحو النهر العظيم الذي تخافه، وما عادت أيضاً! في الغابة اختفت، وفي النهر غرقت، بعد أن سبحت طويلاً، ومغاور الغلال هدمت، فهيا! فرفض! أبوك، وأعمامك، تعاونوا عليه، وحملوه حتى قطعنا به مخاضة النهر العظيم! وعند أول قرية جولانية مطلة على قريتنا، وحقولنا، قال اهبطوا، فهبطنا في قرية(نعران)، عمرنا البيت الكبير، وحفرنا البئر، وزرعنا الحاكورة، واستثمرنا الحقول التي استأجرناها من أهالي القرية موسميا! كان جدك يجلس على الأرض صباحاً، ووجهه نحو الغرب، فأقول له: كيف تدير ظهرك للشمس، فيقول: أريد أن أرى بيوت (كراد البقارة) وهي تستقبل طلوع الشمس، أما الشمس فسأنظر إليها طويلاً حين تصير فوق بيوت، (كراد البقارة)، فأقول له: المدمرة! فيردد: المدمرة!
جدي بقي وحيداً في القرية الجولانية (نعران)، بعد أن مات رجل شيخ من أبناء القرية، بقي معه، لقد غسله وصلى عليه، بعد أن حفر قبره، ووراه التراب، وظل يذهب إليه في الصباح الباكر ليقرأ له بعض آيات القرآن الكريم، ويدعو له بالمغفرة والرحمة.
أبي الفلاح، والراعي حين يغيب الراعي، ذهب إلى جدي متسللاً، وبعد ثلاثة أيام، وصل إليه، كان أبي يمشي ليلاً، ويتوارى نهاراً، لم يخف من الوحوش، بل خاف من رصاص الخواجات، وحين التقاه، رجاه أن يخرج معه، وأن يعودا معاً كي تفرح العائلة، فرفض، وقال لأبي: أنا لا أستطيع أن أقطع طريق الخروج، ولكنني أستطيع البقاء هنا، فأنا آكل مما أزرعه في الحاكورة، وأشرب من نبعة القرية، وسأكون هنا بانتظاركم، حين تعودون إلي، سأفرح بعودتكم، وسأدلكم على المخاضة، كي نقطع النهر بأمان، ومن دون أن يغضب النهر العظيم، وسنصعد جسر بنات يعقوب من جهته الشرقية، ونهبط نحو جهته الغربية، ثم ندخل (كراد البقارة) بصخب! حاول أبي اقناعه، وقد عاش معه أياماً لكنه أخفق! جدي، قارئ القرآن الكريم، تعلم في مدارس ثلاث: غابة قرية (كراد البقارة) التي لم تغادر المكان، وجسر بنات يعقوب دنيا العمران، ونهر الأردن المقدس الباقي أبداً، وقد أراد أن يكون وفياً لمدارسه الثلاثة .. فكان!

Hasanhamid5656@gmail.com

عائلة تستظل بشجرة بينما تسبح بجعة على ضفاف نهر في برلين حيث تواجه موجة حر شديدة . (ا.ف.ب)

يوم جديد من الحر الشديد في قسم كبير من أوروبا

برلين- أ.ف.ب- عاش قسم كبير من أوروبا أمس السبت يوما إضافيا من الحر الشديد الممتد من فرنسا إلى بولندا مرورا بالساحل الأدرياتيكي الكرواتي، حيث تخطت الحرارة 35 درجة مئوية بالنسبة لما لا يقل عن 193 مليون نسمة، ما يُشكل ضغطا كبيرا على الأنظمة الصحية.
ومع انتقال موجة القيظ إلى شمال شرق القارة، أُعلنت حال التأهب القصوى في فرنسا وسويسرا وألمانيا والنمسا والمجر.
وسيواجه ما لا يقل عن 193 مليون نسمة في أوروبا بينهم 75 مليونا في ألمانيا، حرارة تفوق 35 درجة مئوية خلال نهار السبت، وفق تحليلات وكالة فرانس برس، وهو ما يتخطى المستويات المسجلة الجمعة.
وسجّلت الحرارة القصوى في الدنمارك غير معهودة منذ بدء تسجيل البيانات سنة 1874 بواقع 36,6 درجة مئوية، بحسب معهد الأرصاد الجوية الدنماركي الذي أشار إلى أن "اليوم لم ينته بعد".
ويلجأ الأوروبيون إلى كل الوسائل الممكنة لتفادي الحر الشديد، فيحتمون في كنيسة أو ينامون في أقبية منازلهم أو يبللون أنفسهم في النوافير، حتى إن الفرنسية ناتالي قالت إنها تعمد إلى قضاء "بضع ساعات في بيكار"، سلسلة المتاجر الفرنسية المتخصصة في بيع المنتجات المجلّدة.
وفي ألمانيا، قال خبراء الأرصاد الجوية إنه "من غير المستبعد حتى أن تصل الحرارة إلى 42 درجة محليا". وسجلت ساربروكن قرابة الساعة 17,00 الجمعة 41,3 درجة، أعلى حرارة تشهدها ألمانيا على الإطلاق.
أما في العاصمة السلوفاكية براتيسلافا، فلم تنخفض الحرارة عن 26,3 درجة ليل الجمعة السبت، وأورد معهد الأرصاد الجوية السلوفاكي أن "المستوى القياسي السابق كان 24,8 درجة في 4 آب/أغسطس 2017"، متوقعا أن تصل الحرارة إلى ذروتها عند 39 درجة السبت.
وتسببت موجة الحر بإلغاء "مسيرة الفخر" لمجتمع الميم في كل من باريس وليون (وسط فرنسا الشرقي)، كما ألغي مهرجان "سوليدايز" للموسيقى الذي كان من المقرر تنظيمه في العاصمة الفرنسية حتى الأحد.
ومع إلغاء "سوليدايز"، ستُحرم جمعية "سوليداريتيه سيدا" المنظّمة للمهرجان من ثلاثة ملايين يورو كانت ستستخدمها لتمويل برامج لمكافحة الإيدز.
وفي ألمانيا، لن تجري مدينة هامبورغ سباق نصف الماراثون، في حين اختُصر مسار سباق الدراجات الهوائية "أيرونمان" في فرانكفورت.
وفي العاصمة برلين، خفّفت قاعة فيلهرموني الراقية للحفلات بعض القواعد المفروضة على اللباس وسمحت للرجال بالتخلّي عن السترات ورفع الأكمام.
وفي المجر، حُشد الجيش لتوزيع قوارير المياه خلال أحداث عامة في مدن صغيرة من البلد.

ارتفاع نداءات الطوارئ

وشكلت هذه الظاهرة المناخية مع ما يواكبها من تلوث ضغطا شديدا على الأنظمة الصحية في العديد من البلدان.
وفي المنطقة الباريسية، سجلت خدمات الطوارئ ارتفاعا هائلا في الاتصالات الواردة بنسبة بلغت 80٪ هذا الأسبوع.
وقال مساعد رئيس بلدية باريس المكلف الشؤون الصحية أنطوان أليبير صباح السبت إن المستشفيات الباريسية تشهد "حالة اكتظاظ استثنائية" غير مسبوقة مؤكدا "إننا في وسط أزمة صحية. إنها ظاهرة قيظ استثنائية وقصوى" تفاقمت بسبب "ذروة من التلوث بالأوزون".
وحذر رئيس قسم الطوارئ في مستشفى "جورج بومبيدو"، أحد المستشفيات الرئيسية في باريس، من أن الوضع "خطير للغاية"، واصفا "أروقة مكتظة" بالمرضى "معظمهم مسنون" إنما بينهم أيضا من هم "في الخمسين والستين"، يعانون من "ارتفاع حاد جدا في حرارة الجسم". من جانبها، أعربت وزارة الصحة الفرنسية عن "قلقها" من حصول "وفيات في المنازل".
وأوضح روبان لاغاريغ وماتيلد باسكال من الوكالة الوطنية للصحة العامة الفرنسية لوكالة فرانس برس أن "بضع درجات إضافية تترجم إلى زيادة قوية جدا في مخاطر الوفاة"، وأشارا إلى أن موجات الحر لها "مفاعيل متعاقبة" على معدل الوفيات.
وحذّر مكتب رئيس الوزراء في فرنسا من أنه "حتّى لو تراجع القيظ، فإن آثاره على النظام الصحي ستبقى ماثلة أمامنا"، في إشارة خصوصا إلى المدّة التي يستغرقها ظهور بعض الأعراض.
وفي ستراسبورغ في شمال فرنسا، استولى الإرهاق على نيلي (37 عاما) التي لم تعد تنام "سوى أربع إلى خمس ساعات، في حين إنني بحاجة إلى ما بين ست وسبع ساعات... وقد طفح الكيل".
وأفادت السلطات الإسبانية عن تسجيل أكثر من 200 حالة وفاة، كما سجلت وفيات في باقي أنحاء أوروبا، لمسنين ومرضى مصابين بأمراض مزمنة وأطفال ومراهقين، بالإضافة إلى مشردين في الشوارع. وتتسبب الحرارة بالوفاة بعدة طرق كالغرق وارتفاع حرارة الجسم والنوبة القلبية وغيرها.

"ليال استوائية" في رومانيا

واعتبرت المنظمة العالمية للأرصاد الجوية الجمعة أنه "من المحتمل" أن تكون موجة الحر الحالية ظاهرة غير مسبوقة من حيث حجمها، وإن كان من السابق لأوانه تأكيد ذلك.
وتُعد موجات الحر المتكررة مؤشرا لا لبس فيه إلى التغير المناخي، الناجم بشكل أساسي عن استخدام البشر لمصادر الطاقة الأحفورية.
ولموجات الحر هذه تبعات كثيرة، منها وقف محطات الطاقة النووية، كما في بيزناو في سويسرا، وارتفاع حرارة البحيرات الساحلية الضحلة في دلتا بو بشمال شرق إيطاليا، وتسارع ذوبان نهر الرون الجليدي في سويسرا وغيرها.
لكن الموجة بدأت بالانحسار تدريجيا في فرنسا حيث يتوقع رفع حال التأهب القصوى مساء الأحد مع تدفق "هواء أكثر برودة" من الغرب والشمال الغربي. كما ستشهد ألمانيا بحسب التوقعات "استراحة" اعتبارا من الإثنين مع تدني الحرارة عن 40 درجة.
وفي شرق القارة، تستعد رومانيا لإعلان الإنذار الأحمر اعتبارا من الإثنين على كافة أراضيها تقريبا، إذ تتوقع الأرصاد الجوية الوطنية "درجات حرارة قصوى" و"ليالي استوائية" تستمر حتى الأول من تموز/يوليو.
وتعتزم مولدافيا المجاورة حظر حركة السير للآليات التي تزيد عن 12 طنا بين 28 حزيران/يونيو والأول من تموز/يوليو.

حبر على جمر

لمى عواد

فلسطين ومعيار الشرعية الإقليمية

ليست كل القضايا تحتفظ بموقعها بالطريقة نفسها. فبعضها يتراجع، وبعضها يختفي، بينما يعيد بعضها تعريف دوره. والقضية الفلسطينية تنتمي إلى الفئة الثالثة؛ إذ لم تفقد مكانتها في الشرق الأوسط، لكنها غيّرت وظيفتها. فلم تعد القضية التي تدور حولها التحالفات فحسب، بل أصبحت أحد أهم المعايير التي تُقاس بها شرعية النظام الإقليمي الجديد.
لعقود طويلة، وُصفت القضية الفلسطينية بأنها "القضية المركزية" في النظام العربي والإقليمي. لم يكن هذا الوصف مجرد شعار سياسي، بل كان يعكس حقيقة أن معظم الاصطفافات والتحالفات والمواقف الإقليمية كانت تُقاس بمدى قربها أو بعدها من فلسطين. أما اليوم، وفي ظل التحولات المتسارعة التي يشهدها الشرق الأوسط، يبدو أن السؤال لم يعد: هل ما تزال فلسطين القضية المركزية؟ بل أصبح: ما الدور الذي تؤديه فلسطين في نظام إقليمي يعاد تشكيله؟
الجواب، في تقديري، أن موقع فلسطين لم يتراجع بقدر ما تغيرت طبيعته.
لم تنتقل فلسطين من مركز النظام الإقليمي إلى هامشه، بل انتقلت من كونها محورا تُبنى حوله السياسات إلى أحد أهم المعايير التي تُقاس بها شرعية تلك السياسات، بل ربما أكثرها حساسية في الشرق الأوسط.
لقد دخل الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة مرحلة إعادة هندسة سياسية وأمنية غير مسبوقة. فملفات الأمن الجماعي، والطاقة، والممرات التجارية، والذكاء الاصطناعي، والاستثمارات العابرة للحدود، أصبحت تحتل مكانة متقدمة في حسابات الدول. ولم تعد القضية الفلسطينية وحدها تحدد اتجاهات العلاقات الإقليمية كما كان الحال في العقود السابقة.
ولفهم هذا التحول، لا بد من قراءة المكانة التي شغلتها فلسطين عبر المراحل المختلفة من تطور النظام الإقليمي العربي. ففي خمسينيات وستينيات القرن الماضي، ارتبطت فلسطين بمشروع القومية العربية، وأصبحت معيارا لالتزام الأنظمة بخطاب التحرر والوحدة. ومع التحولات التي شهدتها المنطقة منذ سبعينيات القرن العشرين، وانتقال عدد من الدول إلى مقاربات أكثر واقعية، غدت القضية الفلسطينية معيارا تُقاس به شرعية الأنظمة العربية في نظر شعوبها، حتى وإن اختلفت سياساتها تجاه الصراع. أما منذ انطلاق عملية السلام في تسعينيات القرن الماضي، فقد أصبحت فلسطين ميدانا لاختبار قدرة التسويات السياسية على إنتاج سلام مستدام، لا مجرد اتفاقات سياسية.
واليوم، وفي ظل التحولات الجيوسياسية المتسارعة، لم تعد فلسطين تمثل معيارا لشرعية نظام أو أيديولوجيا بعينها، بل أصبحت المعيار الذي يُختبر من خلاله مدى قدرة النظام الإقليمي الجديد على تحقيق الاستقرار والقبول والاستدامة.
وهكذا، فإن ما تغيّر ليس أهمية القضية الفلسطينية، وإنما الوظيفة السياسية التي تؤديها داخل بنية النظام الإقليمي.
وهذا التحول الوظيفي هو ما يفسر استمرار حضور فلسطين في قلب النقاشات الإقليمية، رغم تغيّر أولويات الدول وأدواتها. غير أن هذا التحول لا يعني أن فلسطين فقدت أهميتها. وقد كشفت الأزمات المتعاقبة في المنطقة أن أي مشروع إقليمي يتعامل مع القضية الفلسطينية بوصفها ملفا يمكن تأجيله أو تجاوزه، يصطدم سريعا بحدود قدرته على إنتاج الاستقرار. فالحروب المتكررة، وتصاعد التوترات، واتساع دائرة عدم اليقين، تؤكد أن تجاهل جذور الصراع لا يؤدي إلى إنهائه، بل إلى إعادة إنتاجه بأشكال أكثر تعقيدا.
ومن هنا، تبرز فكرة الشرعية الإقليمية بوصفها الإطار الذي يمكن من خلاله فهم موقع فلسطين في الشرق الأوسط الجديد. فالشرعية الإقليمية، كما تقترح هنا، لا تعني مجرد قدرة أي نظام ناشئ على بناء توازنات القوة أو إبرام التحالفات، وإنما تعني قدرته على اكتساب القبول والاستقرار والاستدامة عبر معالجة القضايا المؤسسة للصراع، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.
ويمكن قياس هذه الشرعية من خلال ثلاثة مؤشرات مترابطة: قدرة النظام الإقليمي على إنتاج الاستقرار دون الاكتفاء بإدارة الأزمات، واتساقه مع قواعد القانون الدولي وحقوق الشعوب، ومدى قبوله لدى الرأي العام الإقليمي، لا لدى النخب السياسية وحدها. ومن هذا المنظور، تصبح فلسطين ليست مجرد أحد ملفات المنطقة، بل الاختبار الأكثر حساسية لمدى شرعية أي نظام إقليمي جديد وقدرته على الاستمرار.
ولعل المفارقة أن محاولات تجاوز القضية الفلسطينية لم تؤد إلى تراجع حضورها، بل جعلتها تعود في كل أزمة باعتبارها العقدة التي تعيق اكتمال أي ترتيبات جديدة. وكأن المنطقة تستطيع إعادة رسم خرائطها الاقتصادية والأمنية، لكنها لا تستطيع تجاوز الحقيقة الأساسية: أن السلام المستدام لا يُبنى على إدارة الصراع، بل على معالجته.
ولا يقتصر هذا التحول على المستوى الإقليمي، بل يمتد إلى النظام الدولي ذاته. فقد أصبحت المواقف من فلسطين معيارا يُقاس به اتساق الدول مع المبادئ التي تعلن الدفاع عنها، مثل احترام القانون الدولي، وحماية المدنيين، ورفض الاحتلال، وحق الشعوب في تقرير مصيرها. وهنا لم تعد القضية الفلسطينية اختبارا للسياسات الإقليمية فقط، بل اختبارا لمصداقية النظام الدولي نفسه.
إن السؤال الحقيقي ليس ما إذا كانت فلسطين خرجت من مركز النظام الإقليمي، وإنما ما إذا كان أي نظام إقليمي جديد يستطيع اكتساب الشرعية والاستمرار من دون معالجة عادلة للقضية الفلسطينية. والتجربة التاريخية تشير إلى أن تجاهل فلسطين قد يؤجل الأزمات، لكنه لا يلغيها.
وقد تغيّر الشرق الأوسط مرات عديدة، وتبدلت تحالفاته، وسقطت أنظمة وصعدت أخرى، لكن فلسطين بقيت العامل الأكثر قدرة على كشف حدود أي نظام إقليمي جديد. فالنظام الذي يستطيع إنتاج القوة من دون عدالة قد يفرض نفسه مؤقتا، لكنه يعجز عن إنتاج الشرعية.
لقد تغيّر موقع فلسطين في الشرق الأوسط، لكنه لم يتراجع. فبعد أن كانت القضية التي تدور حولها التحالفات، أصبحت المعيار الذي يكشف حدودها ويمنحها شرعيتها أو يسلبها إياها. ولذلك، فإن السؤال لم يعد: أين تقع فلسطين في النظام الإقليمي؟ بل أصبح: أي نظام إقليمي يمكن أن يكتسب الشرعية وهو يعجز عن تقديم إجابة عادلة للقضية الفلسطينية - وفي الإجابة عن هذا السؤال، لا يتحدد مستقبل فلسطين وحدها، بل تتحدد أيضا ملامح الشرق الأوسط الذي يتشكل اليوم، وحدود شرعيته، وقدرته على إنتاج سلام مستدام.